# صـورة الأنا والآخـــر في الرواية العربية

قيل أن تسأل غبرك عنه اسأل نفسك عنك، قال سقراط ذات مرة عبارته المشهورة "اعرف نفسك". وهذا الامر يتطلب معرفة الذات لكنهها من أين هي وكيف هي وهل هي منفصلة غيرها كائنة من غير الآخرين ولذلك فإن من ينعم النظر في جدلية الأنا والآخر، يجد أنها مسألة عريقة في تاريخ الفكر البشري، ولكن هذه المسألة أصبحت أكثر حضوراً وإلحاحاً في العقود الأخيرة بخاصة، إذ تشهد بلدان كثيرة صراعات عرقية وطائفية وإثنية وسمت الفترة الأخيرة من القرن العشرين.

وهذه القضية سنعالجها من خلال الخطاب الروائي العربي، وكيف ينشأ الصراع في الأعمال الأدبية بالنسبة للأنا والآخر من خلال موقف كل من هما بدءا بصورة الأنا ثم صورة الآخر:

**1/ الأنا**

إن الدارس للروايات العربية في القرن التاسع عشر يجد أن معظمها قد طرح إشكالية الشرق والغرب، فالشرق هو الأنا والغرب هو الآخر. فهذا محمد المويلحي في "حديث عيسى بن هشام" يرى أن الأنا متخلف جاهل ظلامي ما زال يعيش على نمط الأقدمين السلفيين، في حين أن الآخر خطا خطوات جبارة في شتى المجالات كالعلم والصناعة والفنون والآداب والتربية والحياة الاجتماعية والفكرية، وفي معرض حديثه عن أخلاق الآخر، يرى أنها فاسدة ماجنة، ويفضل عليها أخلاق الأنا.

أما بالنسبة لسليم البستاني وجورجي زيدان في رواياتهما التاريخية فإنهما أرادا القول بأن الأنا العربية التي تحمل التاريخ العربي بكل تلوناته وصوره تستحق أن تعامل معاملة إنسانية على يد العثمانيين الذين يمثلون صورة الآخر، فتاريخ هؤلاء حديث العهد، بينما تاريخ العرب أعرق وأغنى، وبالتالي لا يجوز لأمة عاشت هذه الحضارة العربية الثرية أن ترضخ وتستكين للاضطهاد والاحتلال والاستعباد، وإن كانت هذه الرؤية مضمرة فيها من الضغينة والتشويه للحقائق التاريخية.

وإذا انتقلنا إلى الروايات العربية الأولى من القرن العشرين نلاحظ أن جدلية الأنا /الآخر لا

تعني بالضرورة أن الأنا عربية وأن الآخر يمثّل الغرب ففي "إبراهيم الكاتب" لإبراهيم عبد القادر المازني، نرى أن الأنا تمثل المدينة وأن الآخر يمثل الريف. وقس على ذلك بالنسبة إلى "زينب" لمحمد حسين هيكل. في عدد من روايات نجيب محفوظ، وخاصة في "الحرافيش"، الأنا هو ساكن الحارة المركزية، والآخر هو ساكن الحارات الأخرى.

وعند توفيق عوّاد في رواية "الرغيف"، تتمثّل الأنا بالعربي، والآخر بالعثماني. أما في روايته "طواحين بيروت" فيطرح إشكالية الريف والمدينة مع تقاطعاتها الاجتماعية والطائفية، وفي رواية "رامة والتنين" لادوار الخراط تتمثل هذه الجدلية بالديانتين الإسلامية والمسيحية.

وقد يتعدد الأنا والآخر في الذات أو الأنا الواحدة فهذا طه حسين يصف في أيامه المؤسستين التعليميتين الكبيرتين في مصر، جامعة الأزهر والجامعة المصرية، بعد انتقاله من الكتّاب والأزهر إلى الجامعة التي يعجب بها وبمناهجها الحديثة؛ فالأنا والآخر هنا مكثفان في شخصية واحدة تتطور وتتجاوز ماضيها، فالأنا أنيان تصبحان في فترة ما من حياته متعارضتين ومتعاديتين.

وبداية من الخمسينات تبدأ رحلة الذات الممزقة والمأزومة التي تتنازعها الصراعات الداخلية، ففي خماسية عبد الرحمن منيف نرى أن متعب الهدّال، الذي يمثّل أصالة المجتمع البدوي وهوية الأنا السعودية، قد اختفى لتحل محله شخصيات سعودية انتهازية ومنتفعة من الشركات النفطية. فالأنا السعودية واحدة، ولكن الشرخ الذي أحدثته فيها ثروة النفط، تجعل هذه الأنا متكسرة ومبعثرة ومتشظية. ويركز على الحنين إلى تلك الأنا الأصلية وإلى الماضي العريق ولكنه لا يتعدى الحلم. لقد تغيّر التاريخ وتغيّرت الأنا، كما تغيّر بدر الدين النبهان في "شموس الغجر" لحيدر حيدر، وهو البطل الذي انتقل من المادية الماركسية إلى التدين وحلقات الدراويش.

وفي روايات السجن السياسي –وما أكثرها في الأدب العربي– يبرز صراع مرير بين البراءة والجور، بين الأنا المغتصبة والأنا المغتصبة، بين السجان الجلاد وبين السجين الذي تبطش به

السلطة، إلى أن يصفّى أو يذعن ويخون، وتعد رواية اللص والكلاب" لنجيب محفوظ رائدة في إبراز هذه الثنائية التي تمزق أحشاء الأنا فتغترب عن ذاتها.

وهذه غادة السمان وعدد كبير من الروائيات اللواتي تكلمن عن تحرير المرأة، تجد أن الذات العربية ممزقة بين الرجولة والأنوثة، فالمجتمع العربي الذي يفرز شخوص الروايات، هو مجتمعان، لا بل مجتمعات متشابكة متناحرة تضيع فيها الأنا، الأنا المرأة المضطهدة المظلومة والآخر الرجل .

فبعد أن كانت الجدلية تركز على الأنا والآخر صارت تركز في الرواية الحديثة على الأنوات أو أشكال الأنا المتصارعة مع ذاتها. فانتقلنا من ثنائية الوطني /الأجنبي إلى إشكالية الداخل/ وكانت المسألة في الماضي محسومة لصالح الوطني على حساب الأجنبي، بينما أصبحت في الرواية الحديثة معقّدة شائكة غامضة، وصارت متاهة تداخلت فيها التضاريس والألوان، شأنها في ذلك شأن الحياة العربية في آخر القرن العشرين.

**2/ الآخر:**

عن نفي الآخر هو نفي للأنا فمن ينفي الآخر ينفي ذاته، لأن الآخر مكمّل للذات، ومن يختزل الآخر يختزل ذاته. ذلك أن الذات المتعددة تقتضي وجود آخر متعدّد، لقد اختزل مصطفى سعيد بطل رواية الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال"، الغرب إلى أنثى مستجيبة والشرق إلى ذكر فحل، لقد تحوّل مصطفى سعيد الصيّاد الذي لا يشق له غبار في الإيقاع بالنساء إلى طريدة تقتنصها جين موريس بكل عنجهية وغرق في ذات الآخر.

وهذه الصورة الأخلاقية الماجنة تقابلها صورة دينية لا تقل عنها حدة ففي "عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم تبدو الأمور محسومة بشكل حاد: الغرب مادي ملحد يطوّر فلسفة وضعية، بينما الشرق هو روحاني مؤمن يطور قيما إنسانية. وفي "قنديل أم هاشم" ليحيى حقي، إسماعيل يفقد الإيمان في لندن بسبب ماري البنت التي أحبّها، وعندما يعود إلى مصر يستمرّ في معاداته للدين والخرافة ويحطّم قنديل أم هاشم. وبعدها يتوب إلى رشده، فصار يعالج مرضى العيون بالزيت المقدس

وبالأدوية الصيدلانية، أي بالدين والعلم.

وقد تعاملت بعض الروايات مع الآخر بصورة أكثر موضوعية وأقل اختزالا. ففي الغالب يصور الأدب الساذج العدوّ على أنه البلاء الأعظم والطاعون المقيت والشيطان الرجيم، ويفقده كل صفة إنسانية. وعلى خلاف هذه الصورة يصف غسان كنفاني العدو الصهيوني بأشكال مختلفة حسب الشخصيات الروائية.

وفي "عائد إلى حيفا "تظهر ميريام كوشن البولونية الأصل والتي أسكنتها الوكالة اليهودية في بيت سعيد، سيدة مهذبة رقيقة الحواشي لا تتجلى عليها علامات الغطرسة الصهيونية. فالآخر، وإن كان ينتمي إلى معسكر الأعداء، قد يكون إنسانياً أكثر ربما من الجار المحسوب على معسكرنا. في رواية "الأشجار واغتيال مرزوق "لعبد الرحمن منيف، تظهر كاترين البلجيكية، تظهر أكثر إنسانية من الحكام المتخلفين والجلادين.

وتطرح مسألة الآخر مسألة أخرى هي مسألة الهوية. ففي هذا الزمن العربي المفتّت الذي ضاع فيه الخيط الرفيع الفاصل بين النور والظلمة، نلاحظ أن الرواية عالجت مسألة الانتماء والهوية بكثير من الإسهاب كما هو الحال في خماسية عبد الرحمن منيف التي تطرح هوية المجتمع السعودي.

وكذا بالنسبة للهوية السورية التي تطرحه "مدارات الشرق" لنبيل سليمان، أو الهوية الجزائرية التي طرحتها رواية "ريح الجنوب" لعبد الحميد بن هدوقة. ومن يطرح مسألة الهوية يتساءل عن المفاهيم التي تحدد هذه الهوية لقد خاضت معظم روايات السجن السياسي في مسألة المواطنة وفي علاقة السلطة بالوطن والشعب كما خاضت في مسألة الانتماءات المختلفة: من حيث التحزب والجهة، والمنطقة والبلد والقطر والقومية والدين واللغة.

وتتداخل المفاهيم والأشياء بسبب تماهي السلطة مع الوطن كأن يصبح الانتماء إلى السلطة هو الإمكان الوحيد للانتماء إلى الوطن. وهكذا يتم اختزال مسألة الهوية لتصبح شعاراً آنياً يتغيّر بتغيّر

هذه السلطة. فيتجزأ الانتماء ويشّوه، فبدل أن يكون انتماء متجدداً وخلاقاً وشمولياً، يصبح انتماء لحالة أو لظرف أو لسلطة ويفقد بالتالي كل مقومات الانتماء الطبيعي، حسب ما وصلت إليه البشرية في نهاية الألفية الثانية.

وهكذا يجد القارئ نفسه في الرواية العربية الجديدة أمام إشكالية حادة تسائله: هل الأنا العربية تتناقض مع الآخر؟ هل الأنا تمثل الصديق والآخر يمثل العدو؟ أليس الأنا والآخر صديقان وعدوان معاً؟ هل هناك صراع حتمي بين الأنا والآخر أم تآخ وتكامل بينهما؟ يميل البعض إلى القول بأن عصر الانفتاح الذي نعيشه في آخر القرن العشرين، سيفرز –بالرغم من كل الحروب والنزاعات– تكاملاً حتمياً بين الأنا والآخر.

إذن بداعي انفتاح البلدان على بعضها وتطور وسائل الاتصالات وثورة المعلومات التي جعلت من الكرة الأرضية قرية صغيرة، كما يقول مروجو العولمة. لن يعود التاريخ تاريخا وهل ذلك يعني تماهي الضعيف في القوي وقتل أناه بحكم ضعفه أم أن على القوي ترك هامش حركة وحرية له نسي مروجوا قبول الآخر بموجب التكامل الحتمي بين الأنا والآخر أن أحداث 2011/09/11. قد كشفت هؤلاء المهللين والمبشرين حين خرج زعيم القوى الغربية ليقول للأخر إن لم تكن معي فأنت ضدي.

وشهادة الفرنسي هنري علاق عن التعذيب في سجون المستعمر الفرنسي"ندّد المناضل هنري علاق بالقمع الوحشي الذي كان يعانيه المناضلون الجزائريون كما ساندهم في ثورتهم المجيدة، بحيث إنه عرف سجون المستعمر، إذ قضى عدة أعوام في سجن بربروس، وألف شهادة بعنوان "القضية" التي فضح من خلالها المعاملات الوحشية للمستعمر، وذلك لدى الرأي العام الفرنسي والعالمي، وبين نضال الجزائريين ومساندیهم من أجل الحرية والديمقراطية والاستقلال. ألا يجب أن تكون العلاقة إذا علاقة احترام متبادل بين الأنا والآخر وليست هيمنة وجور من كان قويا منهما على الآخر.